

٢٦

القلب السياسى

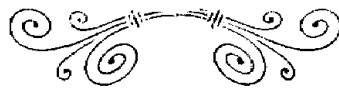
حقا إن الله لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه . فرجال السياسة اليوم ليس لهم إلا قلب واحد هو القلب السياسى ، فما يتردد فى صدورهم إلا حديث الانتخاب ، وتوزيع الكراسى على الأحزاب . ومرسوم الميزانية ، والرحلة الملكية . وهذان الأستاذان عبد القادر حمزة وعباس العقاد وغيرهما قد بحثت أصواتهم فى هذه المسائل بين استنجاز لمطول ، وتعريف بمجهول . حتى لم يبق عامى ولا شبيه به إلا وقد وقف على كنه المسألة المصرية وما أُبَيِّت لها ، أو يُشَدَّ به أزرها

وما نعيب على وطنى أن يعنيه أمر وطنه فيعرف أوليائه وأعداءه ونافعه وضاره ، ولكننا نعيب أن يقيّد شئ واحد أسماعنا وأبصارنا ، يأخذ علينا مذاهبنا وشعابنا . فنتلافى خطراً ونستهدف لأخطار ، ونداوى جرحاً ونفرط فى جراح

هذا مرسوم ملكى قد صدر يبطل بدعة ويميت ضلالة ويقضى على مفاسد كثيرة ويخلصنا من شرور تورطت فيها الأجيال الماضية - هو مرسوم بما ينبغى اتباعه من آداب الزيارة للقبور وتشجيع الجنائز والاقلاع عن عادات الجاهلية الأولى . فهو إلى جانب كونه مرسوماً ملكياً يجب أن نعتبره صفحة تقية من آداب ديننا القويم وصورة حسنة لما يجب أن تكون

عليه نفوسنا ويظهر به اجتماعنا من كمال ونظام
يقضى هذا المرسوم بمنع ذبح الذبائح داخل الحيشان أو بجانب القبور ،
وعدم السماح بالمبيت في القرافة أو المكث بها إلى ما بعد الغروب بساعتين ،
وبمطاردة المتكففين هناك ، وبإبطال النذب واللطم والعويل وإقامة الزار
والملاهي بجوار المقابر ، كما يمنع أن يتبع الجنائز إلى القرافة نساء أو كفارات
أو حملة القمام والمباخر أو نحوهم .

يصدر هذا المرسوم ويبدأ تنفيذه من ٢٥ مارس سنة ١٩٢٦ ويعرف
كتاب الصحف ومفكرو الأمة أثره في صلاح اجتماعنا كما يعرفون أنه
علاج العلة التي ظلمنا نشكوها مرّ الشكوى في السنين الفائتة فما ظفرنا لها
بعلاج . واليوم حين يقدم لنا العلاج أو ترف إلينا البشرى بالسلامة من
الداء لانعلن الفرح بهذه النجاة ، ولا نبني الآمال على خروجنا من أسر هذه
العادات ، ولا نُعير هذا الموضوع نفقة من أقلامنا !! أما كان يحسن رجال
الصحف أن يُعينوا رجال الإدارة على تنفيذ هذا المرسوم بشرح آثاره وبيان
منافعه والتخويف من مخالفته حتى يدعّن له الناس من غير عناء ولا كبير
مقاومة



كتّابنا

شاءت المقادير أن تمدّ في أنفاس كلماتنا إلى ما بعد رمضان ، وقد صحّ عزّ منا أن نطالع حضرات القراء في الفِئَةِ بعد الفِئَةِ بما يقع تحت نظرنا الكليل من مادة القول . هي ما بين حقيقة نَسْرُدُها أو مذمّة نعيها . أو محمّدة نُذيعها أو صفحة من التاريخ نُنشرها . ملتزمين ما رآه القراء منا في (كلمات صائِم) من إيجاز صريح وإشارة مغنية ، شاكرين « للبلاغ » خادم القضية المصرية اتساع صدره لكلماتنا

لعلّ اليوم بهذه المقدمة الطويلة قد وقعت فيما سأخذ الكتاب به ، لأنّ نويت في هذه الكلمة أن أعرّض لسخطهم ، بنقد إنشائهم
ليكن لأنصار الجديد حقهم في أن يجددوا ولكن لا ينبغي لهم أن يفهموا أن من التجديد ذلك الخروج الذي يخرجونه عن حدود العربية وقوانينها . فليراعوا ذلك أولاً ثم ليلعبوا بالأسلوب ماشاءوا ، وليُهلِّلوه ^(١) ما أرادوا ، ولهم في فضاء اللغة الواسع ومناحيها الكثيرة ما يسمع جَولاتهم ويحتمل تجنّياتهم لا يحسن بنا أن نسكت على من يجعل أول خطبته في كتابه قوله بعد جملة أصفار ونقط (. . . وحتى هذا الكتاب يحتاج مني إلى مقدمة) فإنّ حتى هذه التي يقول فيها الأُخْفَش . أموت وفي نفسي شيء من حتى ، لأنّه وجدّها مشعبة الاستعمال ، متعددة المعاني والأغراض ، لم نجد من العرب

(١) هلهلة الكلام تزيقه

من استعمالها في البدء البحت ولا من استعمالها بعد هذه الواو . فكيف ساغ
لهذا الكاتب أن يجمع بين الجنوحين وأن يركب الشططين
ليس من أساليب العرب في حقير ولا جليل ما يبدأ به القصص رواياتهم
من ضمير لا مرجع له وليس هو بضمير الشأن مثله في قوله تعالى : (قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ) . فترى الرواية قد بدئت بقول كاتبها : مضى عليه في هذه الجزيرة
عشر سنوات لا يعرف له مأوى غير الكهوف . .

وما كنت أودّ أن أذكر أسماء ولكن مضطر أن أبوح باسم الأستاذ
توفيق دياب ، يدفعني إلى ذلك ما أحب من تسجيل فضله وأدبه الجم . ثم
لا يمتنعني هذا من لومه وهو ذلك العربيّ الجزل بل البدويّ القحّ أن يتهاف
تهاف هؤلاء الأطفال الذين يمضغون الكلام ويقطّعون تقطيعاً فيقول
في ذيل مقال له في السياسة الأسبوعية في تقسيم الناس إلى جادّ في الحياة
وهازل (ترى أي الرجلين تكسر . يكسر . أكون) أراد أن يأتي بجميع
أنواع الضمائر للمخاطب والغائب والمتكلم فمنعه الحياء أن يتم الكامتين تكون
ويكون . ولعله رأى مثل هذا التعبير في اللغات الأخرى ولكننا في العربية
صُرحاء لا يمتنعنا من قولة الحق مانع . فإذا كان الأستاذ دياب قد حسنت
نيتته وأراد أن يدخل إلى العربية ذوقاً جديداً في التعبير فقد وقع في « التثك »
« واليك » وهي لغة النرد^(١) في عرف اللاعبين . وما نرضى له أن يكون
ككتاب الروايات الساقطة الذين يريدون أن يمثلوا الحياء والحجل فيقولون
وطلب منها ق . . . لة . وليس ذلك في رأيي إلا نوعاً من الاستعجاب

والنبطية^(١) وإلا ففي اللغة الألفاظ الكثيرة التي تدل على الخجل والاستحياء
لعل لكل هؤلاء الكتاب عذراً لأنهم قد غمّرت عقولهم الأساليب
الأعجمية فوقعوا فيها طوعاً أو كرهاً . فما بال أستاذنا الشيخ عبد الباقي سرور
في أمالي رمضان يكرر لفظ (هذا) في خمسة أسطر أكثر من عشر مرات
ولا ندرى كيف أخذته جلالته هذا اللفظ حتى كرره تكراراً معيباً . مع أن
تقاد المتنبّي حين عابوا عليه الإكثار من كلمة (هذا) لم يجدوا له في ديوانه كله
ما وجدناه مجموعاً في أسطر الأستاذ . قال حفظه الله : هذا للأجنبي ، هذا
حسن . هذا عن الغرب ، هذا جميل . هذا من أوروبا ، هذا رقي . هذا من
إنجلترا ، هذا فيه سعادة . هذا من فرنسا ، هذا فيه عزة . هذا من إيطاليا ،
هذا فيه نخر . هذا من الشرق ، هذا ممقوت . هذا من تعاليم الإسلام ،
هذا قديم . هذا من الدين ، هذا خرافة .
وبعد فمعدرة أيها الكتاب ، وصفحاً أيها البصير « قدّامة لتطفلي على
مائدتك الشبية »

(١) لغة قوم كانوا ينزلون بين العراقيين « العربي والفارسي » فكانت لهم لغة بين العربية
والفارسية ويضرب بأهلها المثل في العجمة

٢٨

شاعرنا حافظ

أقيم الاحتفال بالعيد الخمسين^(١) للمقتطف فكان من المصريين أكبر
مظهر لعرفان الجميل . فقد تولّى رعايته أكبر مقام في مصر (حضرة صاحب
الجلالة الملك) وشهده وشارك فيه خلاصة الأمة من أمراء وزعماء وعلماء
فكان ذلك شكراً بالغاً على ما أسدى المقتطف إلى المصريين من فضل .
موضوع كلمتنا هذه هو قصيدة حافظ إبراهيم بك وسنتناولها بالنقد
ونبيح لأنفسنا أن نكون فيه أحراراً . وما يعنيننا أن يغضب حافظ أو ينقم
منا هذا الخروج على الصداقة فإن حق الأدب فوق كل حق . أليس هو حق
اللغة التي وضع منها حافظ في قصيدته وحق الشعر وجمال الفن اللذين أساء
إليهما ؟ فكيف يعدل حق واحد حقوقاً كثيرة . على أننا نطمح في صفح حافظ
يوماً ما ولا نعد أنفسنا أهلاً لرضا اللغة عنا حين ننام عن وترها^(٢) ولا
نتصف لها .

سأترك لشاعرنا معناه فلا أتعرض له باستهجان ولا بدعوى إسفاف
وسوقية ونرانا بذلك قد أكرمنا حافظاً ونزلنا له عن كثير مما لا يتساهل فيه
غيرنا . وموقفنا معه اليوم في شأن ألفاظه وأساليبه وأغاليطه واستعاراته
وتشابهه وقوافيه ..

(١) نسبة إلى خمسين ومخطيء كافة الكتاب يجعل النسبة إليها على لفظ « خمسين »

(٢) ثأرها

لو عرفت أيها القارىء طريقة حافظ في كل ما يكتب لعجبت كيف
يعثر له ناقد على غلط لأن حافظا إذا قال بيت شعر أو سطر نثر تلمس الأدباء
وغير الأدباء بكل سبيل فأقبل عليهم يسمعهم ما قال مقدما أو معقبا بشرح
الصعوبة التي عالجها والعقبات التي تخطاها في إخراج ما أخرج وما يزال يزين
لك جمال هذه اللفظة واختراع ذلك المعنى وأنت غير مستطيع لشدة إقباله
عليك وتوسله إليك إلا أن تشير إشارات الإعجاب ، وتظاهر بمقدرته على
الإطراب . ولعل هذا هو السر في أن شعر حافظ أو نثره يخرج بعد طول
هذا العرض محتاجا إلى كثير من الإصلاح . وأشهد لقد سمعت منه هذه
القصيدة فلم أملك من الحرية ما أبدى به رأيي فيها .

استوقفني ثالث بيت في القصيدة وهو قوله في الحديث عن صاحبي
المقتطف

خمسون عاما في الجهاد كلاهما شاكي اليراعة طاهر الجلباب
غلطة نحوية ! ما يحسن بذوق حافظ أن يستينفها مهما ادعى الجهل
بقواعد اللغة فإن هذه القواعد ليست منفصلة عن الأسلوب وحافظ لا يقبل
أن تقول عنه إنه لم يتذوق بعد الأسلوب العربي
كلمة كلاهما تحتاج إلى واو لتكون وكلاهما لأنها وما بعدها جملة واقعة
حالا وهي محتاجة إلى رابط . وهذا كلام نوجزه وإن كان له خبيء . مطول في
كتب النحو

كذلك في البيت كلمة (طاهر الجلباب) وهي كلمة يراد بها براءة الذمة
ونقاوة العرض والأصل فيها أن يقال طاهر الذيل فاعل الذي بدّل بالذيل

الثوب كله هو حكم القافية وما أكثر ما تحكمت في هذه القصيدة
أما كلمة اليراعة فقد أعجبت حافظاً حتى كررها ثلاث مرات في ثلاثة
أبيات متوالية فقال بعد هذا البيت :

(وأرى اليراعة حلية الكتاب)

وبعد

(إنى نظرت إلى اليراعة في يدي)

وقال بعد ذلك في وصفها

ونظرتها تنقض من كفيهما فوق الطروس خلتها كشهاب
وقبل أن أذكر لك رأى علماء البلاغة في هذا البيت نتحاكم إلى الذوق
في قوله (خلتها كشهاب) أليس أحسن منه وأمثل (خلتها شهاباً) . أمارأى
علماء البلاغة فهو أن خال من أدوات التشبيه مثل الكاف فهي مغنية عنها
وليس من غرض يدعو إلى تكرار الأداة فلم يبق إلا أن حافظاً ألقاها
القافية إلى هذه الكاف

قال بعد ذلك

يزهى مدججنا برمح واحد وأراها لا يزهيان بغاب
الغاب جمع غابة وهي الائمة فهل يريد أن لديهم أقلاماً كثيرة فهي
تحاكي في كثرتها كثرة الأشجار في الغابات . إن كان هذا قصده فما أرى
كثرة الأقلام مغنية عن الكتاب أو العالم شيئاً . وإن أكثر الناس
أقلاماً هم أولئك الأطفال حين يبدؤون المِران على الخط . ولو أن معنى
حافظ كان معنى شريفاً ما عدل عنه أبو تمام فأفرد القلم في قوله

لك القلم الأعلى الذى بشبّاته يُصاب من الأمر الكلى والمفاصل
ثم قال حافظ فى شىخى المقتطف أيضاً

جازا مدى السبعين لم يتجاوزا عن وصل حمد واجتناب سباب
شطر هذا البيت أسلوب ركيك غير صريح الدلالة على معناه فهل
المعنى أنهما استمرا يواصلان الحمد أو المدح ويجتنبان السب . أو أنهما استمرا
هذه المدة يستحقان منا أن نواصل حمدهما بفعلهما الجميل ولا نجد لهما ما يوجب
الذم . أما المعنى الأول فليس مدحاً لهما وأما الثانى فلا تؤديه العبارة
ثم قال من وصف المقتطف :

اللفظ فيه مقوم بصحيفة والسطر فيه مقوم بكتاب
فهل يعجب حافظاً أن يكرر حرف جر مرتين فى بيت واحد ألم يكن
مستطيعاً أن يجعل واحداً فيه والآخر منه ، كذلك الشأن فى تكرار كلمة
(مقوم) ولست أرى غرضاً ظاهراً من أغراض التكرار فى علم المعانى دعا
حافظاً إلى ما ارتكب
ثم يقول : -

كم من يراعة كاتب جالت به ولعابها فى الطّرس حلو رُضاب
لاشك أن الرضاب فى ذوق الحب حلو وهو شهد أو أرق . ولكن
ألم يكن يحسن اتباع الذوق الشائع فى وصفه بكلمة (عذب)
ثم قال : -

وقفت سقاة الفضل فى جنباته تروى النفوس بمترع الأكواب
فوقع حافظ فى غلطة أبى تمام واحتجنا أن نطالبه بكوب من الفضل

كما طوب أبو تمام بملء زجاجة من ماء الملام^(١)

ثم قال في وصف محاسن المقتطف

قد نُسِّقَتْ وتآلفت فكأنها في الحسن مثل تآلف الأحزاب
وترى تهافتنا عليه وحرصنا فتخال فيه مقاعد النواب
لقد أشبه حافظ في قافيتيه هاتين (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب)
نجيبا الريحاني وعليه الكسار في انتقالهما من الدُّعابات والخلاعات فجأة إلى
ذكر الوطن والوطنية حتى يستثير إعجاب المتفرجين فيشتد تصفيقهم ويتعالى
سياحهم. فهكذا أراد حافظ أن يستدر الأيدي شيئاً من التصفيق ويستجدي
الحناجر بعضاً من الاستعادة فذكر (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب)
ثم قال : —

لو كنتُ في عهد الفتوة لم أزل لو هبت للشيخين بُرْدُ شبَّابٍ
هل يستطيع حافظ أن يقول إنه يريد غير هذا الترتيب (لو كنت لم
أزل في عهد الفتوة). وإذ ذلك تكون هذه الغاظة هي الغاظة النحوية الثانية
في القصيدة لأن خبر الفعل الناقص المنفي لا يتقدم حرف النفي. على أن
حافظا لو شاء أن يتمحل له أنصار الرُّكَّة وجه صحة لوجدوا ابن كيَّسان يحيز
ذلك. ولكن ليتمهل حافظ فإنه إن نجما من كون تعبيره خطأ لا ينجو من
التجائه إلى ضعف التأليف في نظر البلاغي.

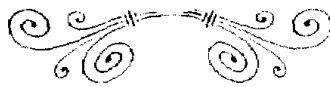
وإني ألاحظ أن حافظاً أخذ منذ سنين يعتذر في آخر كل قصيدة عن

(١) عيب على أبي تمام قوله

لا تسقى ماء الملام فأنتى صب قد استعذبت ماء بكائى

التقصير بدعوى الشيب والضعف وما عهدنا الشعراء يزددون على الكبر
إلا رونق لفظ وصفاء ديباجة وحكمة معنى . وما كان الشعر يوماً صراعاً أو
نطاحاً حتى يُعتذر فيه بمثل هذا . فلم يبقَ معذوراً بالشيب إلا حافظ وهذا
الذي يقول

وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزتُ حدَّ الأربعين
بقيت مسألة خارجة عن الشعر ومستلزماته ولكنها متعلقة بالذوق
العام . كيف أباح حافظ لنفسه أن يُكَيِّ عن الشيخين في أول القصيدة ثم
يفرد أحدهما في آخرها بذكر اسمه فيقول
يعقوبُ إنك قد كبرتَ ولم تزل في العلم لا ترداد غيرَ تصابي
وفي الختام أرجو ألا يعدني حافظ خارجاً على مودته فإنني ما قصدت
الإساءة إليه وأنا أبتهل إلى الله الذي وقَّنى إلى رضائه قديماً أن يدينني له
كما كنت والسلام



شوقي

أليس عجيباً أن تكون كلمة واحدة عنواناً لمقال ، وقد اعتاد الناس أن يستشفوا من العنوان موضوع الحديث . فهل عهدنا أن كلمة واحدة تستقل بالفهم . وتؤدي مالا يؤديه كلام ؟ . نعم عهدنا ذلك في الكلمات العالمية التي لا يستساغ فيها الجهل بل لا يستطيع . فالشمس والقمر وعطارد من عالم السماء ، والطود والبحر ، والسهل والوعر ، من اليبس والماء ، والبحري ، والمتنبئ والرضي وشوقي من الشعراء . . . كل تلك كلمات تستغنى أن تعرف ، وتجل أن توصف

لقد كان من عجيب الاتفاق أن اللغة العربية في مظهرها الشعر والنثر تنزلت من علياء البلاغة إلى حضيض الركة والفهاة انحداراً مع الزمن ومسيرة للتاريخ . فشاعر القرن الرابع أجزل من أخيه في الخامس . وهذا أقرب إلى الإبانة من ناظم القرن السادس . وهكذا حتى صرنا نحكم على الأديب بتاريخ وفاته أو ولادته ، في مقدار إجادته ، فنقول هذا من فحول القرن الثالث أو الرابع . وذاك من شعائير^(١) القرن الثامن التاسع . ولقد تقرر ذلك أصلاً في تاريخ الأدب لأنجد له شذوذاً ولا نصطدم فيه بما يعطل القياس أو يناقض القاعدة .

ولكن عصراً جديداً قد تهيأ لعظمة شوقي الشعرية كما تهيأ العصور وتكون المقدمات وتتجمع الأسباب لفاتح يغير وجه التاريخ أو مصلح

(١) جمع شعور . وقالوا الشعر ثلاث مراتب شاعر ، ثم شويعر ، ثم شعور

ينشئ الاجتماع نشأة جديدة ، ذلك هو العصر الذي بدأه المصلح الأكبر محمد علي باشا بإيجاد المطبعة ونشر الكتب النافعة . ثم أعقبه حفيده إسماعيل باشا الذي استبطن في تمصير البلاد دورة الفلك وهمة الأيام فكانت همته في ذلك أسرع مضاء ، وأكثر إرضاء .

نشأ شوقي في بيئة ذاع فيها العلم وكثرت المطبوعات فنمت عبقريته ، ونضجت شاعريته . ورأيناه قد طوى مرحلة عشرة قرون وقفز إلى القرن الثالث والرابع يعارض البحتري ، ويساجل المتنبي ويزيد على أبي تمام والحق أن من الظلم لشوقي أن ندعى أنه ثمرة هذا العصر أو نتيجة تلك المقدمات . فإن المعروف أن العبقرية لا يكون لها جيلها ، ولا تستمد وجودها من عصرها . بل هي مخلوق ينشئه الله نشأة وحده . فيكون في عصر الظلام نوراً يكشف الغياهب . وفي عصور التمام شمسا تضائل البدور ، وتكون نورا على نور .

ودليلنا على ذلك مما نحن بسببه هذا الإمام الجليل والعالم الطليق الفكر « ابن خلدون » فقد نشأ بالقيروان وما هي في أيامه إلا جهل وأمية ، وحرمان من المدنية ، بل استئناس إلى الوحشية : فكان غريبا أن يكون من بين أهلها هذا الباحث الناقد والمؤرخ الذي غير وجه التاريخ .



عَيَّبَ على المتقدمين من الأدباء أنهم أقفلوا باب الأدب كما أقفل الفقهاء باب الاجتهاد . وإن صح للفقهاء ذلك لأن وسائل الاجتهاد قد انقطعت بانقطاع رواية الحديث والتلقي عن الصحابة والتابعين مثلا فما كان

يصح أن يحرّم الأدباء على العقل البشري أن يتغزل كغزل جرير أو يصف
الخمر كصفة الأخطل أو يفخر كفخر الفرزدق . ذلك لأن الإجادة في كل
هذا سببها قوة الخيال والملكة اللغوية . وما بمستحيل على عقل بشريّ مها
أتى متأخراً أن يفوق فيها المتقدمين ما دامت قوة الخيال مستمدة من الفكر
وهو لا تقف حركته ولا يزداد على كثرة المشاهدات والتثقيف بالعلم إلا
اتساعاً ، وما دامت قوة الملكة اللغوية مكسوبة بتلاوة القرآن وحفظ كلام
المتقدمين . فإذا أضفت إلى ذلك العبقرية المواتية والذكاء المساعد فقد تمت
الأسباب وصح لك أن تساق الأُموى ، وتربى على العباسي ، لا بل أن
تظهر في المعنى والخيال عجز الجاهلي .

رحم الله أياماً كان أستاذنا الشيخ علام سلامة يملئ علينا وأغزل
شعر قول جرير

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتَلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَتَ بِهِ وَهِنَّ أضعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانًا
وأمدح بيت قوله

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحٍ
وأحكم بيت قوله

إِنِّي لَا أَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلًا وَالنَّفْسُ مُوَلَّعةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ

وتلك أبيات إذا قسناها بما يعرف كل أديب من نظائرها في كلام
شوقي ظهر فضل الحضارة على البداوة ، وصقل العلم على خشونة الأمية
وجفاء المنظر . .

يَسْتَدِلُّ العلماء على إحسان الشعراء العباسيين واتساع المعاني أمامهم وظهور الحكمة على ألسنتهم بحضارة عصرهم وجمال مناظرهم وشيوع العلم في أيامهم وترجمة حكمة اليونان إلى لسانهم . ويعدّون من المستحيل أن تصل البلاغة وجودة السبك وحدها إلى دقة الوصف وسمو الخيال ورقة الغزل ، لأن هذه أمور تتصل بالمعنى وتنتج عن الفكر ، فاستحال في نظرهم أن يبلغ الجاهلي شأو العباسي في خياله ورقته وحكمته

وإذا كان الفضل للعلم والأثر للمشاهدة فلم لا يكون الفيلسوف من فلاسفة القرن العشرين المغمور بنعيم مدنيته ، السابح في بحر خياله بما يرى وما يقرأ لملوك القصص ، خيراً من أهل العصر العباسي ، في حين أن حضارتهم إذا نسبت إلى حضارتنا بداوة ؛ وعلمهم بالقياس إلى علمنا طفولة ^(١) ؟ ولم لا يكون شوقي أشعر من كثير منهم وهو الذكي الفؤاد . الخصب الملكة ، الرقيق الطبع ، الواسع النعمة ، الناشئ في قصور الملوك صبيّاً ، وحامل « اليسانس » فتيّاً ؟



لعمرك ما الشعر خمر يصفّيها القَدَم ، ولا طنافس يُغليها طول عهدها بالقَدَم ، ولا عاديّات^٢ يكون ثمنها على مقدار البلى والعَدَم . ولكنه لفظ ومعنى إذا هما اجتماعاً في نفس ، وصدر عن صادق حس . استحق صاحبهما أن يتقدم وإن تأخر به الزمن ، وفاته البكاء على الدمن

(١) الطفاوة ما علا فوق الماء لحفته

من ذا يحدّثني عن شيء امتاز به الأوائل ثم لم يكن لشوقي منه أجزل نصيب . آلبداة والارتجال ؟ وله فيها فضل عرفناه في وفائه لأصدقائه من كبار المصريين خدام الوطن والعلم ونخري البلاد فيما تولّوا من جليل المناصب حين كانت تعاجل المنية أحدهم فتسير فينا قصيدة شوقي قبل جنازة الفقيد وتكون مؤكّبا من القول ، أحفل من موكب المشيعين . وسجلا للفضل يقصر عنه اجتهاد المؤنّنين

سلوا يوم مصطفى كامل وعمر لطفي وعلى أبي الفتوح وغيرهم ممن كنا نقرأ خبر وفاتهم في قصيدة شوقي قبل قراءته في « الأخبار المحلية » . كذلك نسائل عن بدايته وارتجاله جلساءه في شرفة « الكونتنتال » حين يتسامرون ويلهون ويمزحون وجلبّة الشارع من حولهم وجعّة العجلات والسيارات عالية على أصواتهم ، وهو معهم في كل شعب يسلكون ، وفي كل واد يهيمون ولكنه بين الفترة والفترة يقبل بقلمه على ورقته ، فيقيّد من أوابد الشعر وعويص المعاني ما لا يتفق للمروى الذي يفنّى في قلمه وقرطاسه ، ويكاد يحترق من قدح الفكر احتراق نبراسه . . . فأين منه من لا يكفيه سكون حديقة الأزبكية حتى يطلب خفوت الجرّس . وانعدام الحس في قنّة « الجبلية » فلا يغنيه ذاك شيئا ولا يخفف عنه عبئا . ولكل بيت من أياته جولة يذرّع فيها الحديقة من جنب إلى جنب ، ومن شرق إلى غرب . ويتراعى على الحشيش ، لعل النفس منه تحمّش . فإذا اتفق له المعنى الضئيل في اللفظ الكليل . حمد المغبة ، وشكر ربه . وإن عثرت له بالمعنى السائع ،

في لفظ غير زائف . فاعلم أنه بذل فيه جَدْع الأنف ولطم الصدغ وبتف
الشارب ، والقتل في الذَّوْرة والغارب . هذا الذي ستره الله يوم رثاء
الأستاذ الإمام لأن مرضه كان مرضاً لارجاء معه وقد نفس الله على الشاعر
بطول المدة حتى استطاع أن يخرجها قصيدة مشثومة الطالع نَعَب فيها على
دار الإمام نعيب الغراب ، يتبعه الخراب فلما تمت أبياتها جعل في نفسه
يتعجلّ القدر أن يذهب بالذَّماء ، حتى يتقدم للإشاد جميع الشعراء . وهكذا
تمت له الأمانة الخبيثة والوفاء المنكود

وما ذا للقدماء من فضل لم تجتمع له أسبابه بعد البديهة والارتجال ؟
أجودة المعنى ورقى الخيال ؟ ونحن لم نر من النقاد الأبرياء وغير الأبرياء
من أخذ شوقي بسرقة ولا ادعى عليه إسفافاً . فكل معانيه أ بكر ، يزيناها
مع الخفر كريم التجار^(١) . فهي إمامنة نسبة إلى اقتصاد أجاد دراسته . أو قانون
أطال ممارسته ، أو تاريخ استصفي عبرته . أو دين ، تم له فيه اليقين
أما خياله فإن كان غزلاً فما أعف وأكرم . وإن كان قصصاً فما
أدق وأحكم .

سألتني عن السابقين فيم أجادوا ؟ فأذكر لحبيب الرثاء ، وللمتنبى وصف
الغارة الشعواء ، ولابن الرومي الهجاء ، ولرَضِيّ التمدح بالشرف والعلاء .
وللوليد عبثه ، ولأبي نُوَاس خمرياته ورقته^(٢) ، أما شوقي فيملكني البهر ،
ويأخذني السحر . وما أدري أي نواحيه أشعر . وأي أضوائه أبهر . فهو الذي
يرثي الشمس فتعود إلى الدوران ، ويمدح الملوك فيعقد على جباهها أبهى من

(١) الحفر الحياء . التجار الأصل (٢) الرفث الفحش

التيجان . ويسف من النفوس الهواجس ، ويتغافل فيها إلى حيث الأمانى
والوساوس . ويسرد لك التاريخ فكأنك ما تلقنته من غيره ، ولا قرأته
إلا فى شعره . لأنك لأول مرة فى تاريخ هذا العلم تسمعه على لسان معتبر به
مستبشر بخيره ، مبتئس بضيره . ومن ذا يستطيع ذلك إلا شاعر له روح
شوق تجول فى العوالم وتتقمص ما تشاء من أشكال

لعلك لا تجد فى الشعراء المتقدمين من يستطيع أن يمثل لك عصره أو
يكون (كما يقولون) مرآة جيله لأن كل واحد منهم تناول ناحية من القول
خف عليه تناولها ، إذ كان بسبب منها ، فالزاهد لا يجيد إلا وصف الزهد ،
والعاشق لا ترى عيناه غير الجمال ، ولا يبكى إلا للهجرو ولا يسر إلا بالوصال .
فأما الشاعر الذى لم تحدث حادثة إلا حركت نفسه ، وملكت حسه ، فذلك
هو شوق : يبكى للمنكوبين ، ويفتم للشاكين ، ويطرى العلماء ، ويخدد
العظماء ، ويشير العزيمة ، ويدعو إلى كل كريمة ، ويسجل للأبطال النصر ،
مزوجاً بالأعجاب مجزياً بالشكر . ويشقى النفوس المريضة من أدوائها .
ويريح المتعبة من عنائها ، ويرد اليائسة إلى رجائها .

أذكرلى حادثة لم يلب فيها شوق نداء الضمير ولم يُجب داعى الإنسانية
غير مدفوع فى ظهره ولا مسوق بحبل التأمل ، واذكر بجانبه هذا الشاعر
الذى لا يبكى إلا بالأجر كالنادبة تعطيك من دموعها ، على قدر ما تشبع
من جوعها . هذا الذى لم يتحدث إلى الناس عن جماعة رعاية الأطفال ، إلا
بعد أن عُدّت له الخمسون عدداً . وتسلمها نقداً

ولست أحييك إلا على الجزء الأول من الشوقيات حتى ترى أنه سجل
حوادث ، وتاريخ عطاء ، وقيد حكمة

ولقد نظم شعر شوقي لو آثرنا يئنا له برواية ، لأن ذلك يشمر بفضل
لبعض قوله على بعض ، أو أن الجميل فيه محسوب معدود وليس شيء من
ذلك بجائز في رأينا . فالرأي أن تتناول السبيكة كلها فتمتع بجمالها كلتا
عينيك ، وتستمسك منها بجمع يديك .



٣٠

حول الشوقيات

صديق الأديب الفاضل صاحب « عكاظ »

سألتني عن رأيي في شوقي والشوقيات . وأنا أعلم من حرصك على الأدب وخدمتك له في صحيفتك الذائعة ، ومن طول ما شددت بذكر شوقي ، ونشرت من شعر شوقي ، وحاربت من حساد شوقي — أعلم من كل هذا أنك في غنى بيقينك في الرجل عما يُدعى به إليك من آراء . ولكني أعلم بجانب ذلك أن فيك ميلاً للحرية في الرأي والإيابة لشريف النقد هو الذي جعلك تبذل صحيفتك لكل من له رأي في شوقي . لا تبالي بعد أشايك وتابعك ، أم خالفك ونازحك ، فأقبل قبل رأيي في شوقي شكراً جزيلاً على هذه الخدمة الصادقة للأدب والإخلاص الحق للتاريخ

أما شوقي فإنني وإن كنت قد أدّيت الواجب على تلقاء شعره وعبقريته في السياسة الأسبوعية لا أرى مانعاً من إعادة الإطراء والمدح ، وتكرار التسييح . ما دام جمال شعره متكرراً في كل صفحة ، متجلياً في كل لحظة شوقي شاعر إذا مدّ الله في عمره كما مدّ في عمر زهير وحسان ، اجتمع له من الشعر ما لم يتفق لعشرة شعراء من المكثرين أمثال ابن الرومي . فإذا اجتمع إلى هذه الكثرة أنه لا غموض يعدّ عليه ، ولا سقوط يؤخذ به . كان شوقي المثل الأعلى الذي ظل أمنية الآداب فما تحققت إلا في زماننا ، ولا

رنت موسيقاها إلا في آذاننا ، ولا اكتحلت بمرآها غير عيوننا
لا أنكر أن لغنى شوقي أثراً في سمو نفسه ، وأن لسمو نفسه أثراً
في جلال شعره ، وأن لجلال شعره أثراً في سعادتنا الأديبة بما يطالعنا به كل
يوم من تهذيب لنفوسنا ، وتخليد لمجدنا ، وترفيه لآلامنا ، وإنعاش لآمالنا..
وكما يجمع الله المجد في ماجد ، يجمع مزايا الشعراء في واحد ، فشوقي هو ذلك
الجزل ، السهل الدقيق ، الرقيق . الجذلان ، الولهان ، الجاد ، الهازل ،
الرحيم ، القاسي

جناية جناها شوقي على شعراء العصر ، هي جناية الشمس على الكواكب
والبدر . وفضيلة أراد الله أن تنشر ، فأجرى على السنة الحساد كل ذورٍ
من القول ومنكر

هذا وتفضل بقبول الشكر على حسن ظنك بي واعتدادك برأيي



٣١

تهذيب الكامل

صديق الجليل صاحب تهذيب الكامل

تحية لك أيها الأخ الفاضل، وشكراً على هذه الهدية الثمينة التي ملكت علينا بعظمتها سبل المكافأة. وأى شيء يدخل في باب المناظرة لهديتك « تهذيب الكامل » إلا ما يملكه كل من بهظته المنّة من كلمة شكر يرجو أن يصل بها إلى موضع الرضا من قلب المشكور.

لقد كفاني في الحكم على مجهودك العظيم، وتهذيبك المجدى، أن نظرت في فهرس الكتاب، فإذا هذه النظرة مؤحية إلى بما بذلت من عناية، وألفت من شارد، وقربت من بعيد، وسهلت من صعب. وإذا بك قد بررت المبرّد أعظم البر. وقت عنه بما قد فاته أن يبرز فيه تأليفه من ترتيب وتبويب، أدعى إلى الفهم، وأليق بما ينبغي من تسهيل العلم.

لقد شكوت إلى ما قابلك به بعض أنصار القديم^(١) من انتقاد لعملك. ولقد كان أبلغ قول تجيبهم به إظهارك هذا الكتاب في هذا الطراز الجديد. وماذا يضير هؤلاء الجامدين أن يروا بدداً يُنظم، أو جامعاً يُلجم؟ وماهى منهم والله بإخلاص للعلم، ولا أمانة عليه. ولكنها عدوى أوروبية ونزعة غريبة. في الاحتفاظ بالقديم والابقاء على البالى. وإذا أيسح لهم ذلك في

(١) طلب من الشيخ علام سلامة ابداء رأيه في هذا التهذيب فقبّحه كل تقبيح

خرائب الدور وأطلال القصور . فليس بنافع لأعلم أن تبقى منه خرائب
مدعومة . وفائدة معدومة

لقد كان من الغرام الكاذب بكل ما يراه الغريون ، أن استحسن
مستحسن كتاب « الكامل » على ما به من تهوئش واضطراب ، ليس لها
شبه في كتاب . ووالله لو أن يدا خرقاء عيشت بكتاب فنثرت أوراقه ،
وبدّدت نظامه ، وقطعت كلامه . ثم قامت بجمع منتشره ، ولمّ مبعره . غير
مهتدية إلى تعقيب ، ولا حريصة على تبويب . ما كان بأدخل في الاضطراب
من كامل المبرد . ولئن كان تقطّع الصلة في ذلك الكتاب قد عاق كثيراً من
الأدباء عن استيعابه ، وتقصى الفائدة منه ، لقد أحيا تهذيبك الرغبة في
الانتفاع بهذا السفر الجليل والأثر العظيم .

ولست أشبهك في عمالك هذا إلا بمن اهتدى إلى نبع يتفجر منه ماء
عذب ، ينساب في كل صوب ، فتشربه الرمال ، وتتخلف عنه الأوحال .
ولا ينهله الناهل إلا مختلطاً بالقذى ، فيلقى منه كل أذى . ثم جاءت يد صنّاع
فطوّت^(١) النبع ، وأقامت عليه صهريجاً وأنفذت في الصهريج صنابير فاجتمع
الماء ، وضمّن الصفاء .

وبعد فهنيئاً لك هذا العمل الخالد ، والنصرة الكبرى للأدب العربي
جعل الله لكتابك من الرواج بين الأدباء ما يجزيك بعض الجزاء عن المهمة
التي هممتها ، والعزيمة التي وجهتها ، والنية التي أخاصتها
واقبل التحية والشكر والتهنئة من أخيك

(١) طوى البرّ بني داخلها حتى لا تنهار

٣٢

ديوان مهيار

أخرجت دار الكتب المصرية فيما تخرج من كتب الجزء الأول من ديوان مهيار وهو ذلك الشاعر الذي لم يلبس الجزل القول الطويل النفس الذي يكفي في فضله أنه تلميذ الشريف الرضى الناسج على منواله المسلم على يديه وليس يعنينا في هذه الكلمة إلا تلك المقدمة التي قدم بها الكتاب شاعرنا المعروف أحمد نسيم فقد جعل حضرته عنوانها (كيف صُحِّحَ هذا الجزء) فوصف العناء الجمل الذي لاقاه في قراءة الأصل واستجلاء غامضه واستكناه عويصه حتى اضطرَّ إلى « تصحيف » كثير من الألفاظ التي ذهب إعجامها أو وضع خطأ في غير محله . ثم ضرب لنا هذا المثل من تصرفه وتصحيفه وهو قول مهيار

وَأَنعَمُ تَأْتِيهِ مَعَ الرَّبِيعِ جُدْدُ

وقال : (إن المقصود في هذا البيت هو كلمة « تأتية » وهي فضلا عن بعدها عما يقتضيه السياق وعن عدم اتزان البيت بها فإنها توجب أن تكون القافية وهي « جدد » منصوبة فصحَّفناها إلى نابتة أو إلى نابتة ورجَّحنا الأولى لالتئامها مع قوله « الربيع » وقوله « جدد » وهي لا تخفى على أهل الذوق .)

.. مهلا مهلا أيها الشاعر المعروف . إني لم أر كلاماً هو أجمع للخطأ

والخطل من هذه الأسطر القليلة التي نقلتها من كلامك . وأرى أنه لو تعدد
متمعد أن يهزل بالخطأ ما كان بالغاً هذا الحد الذي أوصلك إليه الجد الذي
تفخر به . . أما قولك إن كلمة تأتيه تمنع اتزان البيت فذلك خطأ ظاهرياً بآه
أضعف الأذواق وأبعدها من معاناة الشعر . فكيف ساغ لشاعر أن يتورط
في هذا الحكم . على أننا لو أردنا إقناعك من ناحية العروض وأحكامه
لاستطعنا أن نقول لك إن البيت من بحر الرجز وهو مجزوء دخل عروضه
القطع (وهو حذف آخر الوند المجموع مع تسكين ما قبله) فيصير مستفعلن
مستفعل وهو وزن تأتيه . فالييت في نفسه لاشك موزون . وإن كان معيباً
باعتباره في القصيدة . وأما قولك إن كلمة تأتيه توجب أن تكون القافية
منصوبة أي جدداً وذلك لا يتساق مع بقية القوافي ، فهو خطأ ظاهر يدركه
تلاميذ المدارس الابتدائية الذين ليس لهم بعلم النحو إلا أحدث عهد . ذلك
أن جملة تأتيه تقع صفة لأنعم المرفوعة وكلمة جدد صفة ثانية لها فتكون
مرفوعة أيضاً كما تقول : لى شعر أعجب به ركيك . فتكون كلمة ركيك
مرفوعة على أنها صفة ثانية لشعر (راجع باب النعت في الجزء الثاني من كتاب
الدروس النحوية للمدارس الابتدائية) . وأما استعمالك كلمة التصحيح
في معنى التصحيح فهو استعمال يأباه ذوق من به مُسْكَة من أدب أوله
أضعف فقه للمعاني اللغوية . ألا فاعلم أيها الشاعر المجيد أن التصحيح قرين
التحريف وكلاهما يؤدي معنى المدول عن الصواب لا الرجوع إليه ، فالتصحيح
تبديل يتناول إعجام الحروف أو إهمالها . مثل جعل الجيم حاء أو الباء ياء .

والتحريف وضع حرف مكان آخر . وكلا التصحيف والتحريف من عيوب
النسخ ومن أسباب فشو اللحن والعامية . ولست أدري على أى مجاز بنيت
استعمالك التصحيف فى معنى الإصلاح وتصحيح الخطأ

على أن مقدمة حضرة الشاعر المبرز ضعيفة ركيكة ، بالغة فى الركة مبلغاً
لا يناسب ما لحضرتة من مكانة فى نفوسنا ، ومن شعر قرأناه قديماً وكان له
قبول فى ذوقنا . فحضرتة يستعمل كلمة « التحوير » فى معنى تبديل كلمة بأخرى
مع أنه لو راجع كتب اللغة التى يكاد يَخْتَنق بكثرتها موظفو القسم الأدبى
بالمكتبة لوجد أن تحوير الثوب تبييضه والحوارى من الدقيق أبيضه
والحواريون أصحاب المسيح سُموا بذلك لبياض سرائرهم . فليس من معانى
الكلمة تبديل شئ بآخر . كذلك يقول فى معرض الكلمات التى « حورها »
(إذ قد تختلف هذه الكلمات فيما لو وجدت نسخة أخرى . ولكننا زدناها
لتعطى صورة تكميلية . . . ناقين صفحتين كاملتين من النسخة الفوتوغرافية)

فانظر — رعاك الله — إلى مثل هذه العبارات والكلمات الأعجمية
فى مقدمة ديوان لشاعر من فحول الشعراء . فكيف تطمئن نفس القارى بعد
مارأى إلى حسن الظن بالمجهود العنيف الذى بذله حضرة المصحح « حتى
كادت تزهق النفس مما تكابده من السأم والملل »

أما الأغلاط التى اتفق لى أن أعثر عليها فى هذه النظرة العجلى فهى
غلطات تدل على الإهمال الزائد الذى يصح معه أن ندعى حرمان الكتاب
من العناية كلها أو أكثرها . وليس أدل على الإمعان فى الخطأ من وقوعه

فى « إصلاآ الخطأ » فقد ذكر ففه أن « تءمل » بضم التاء ص ٤٧ س ٩ صوابها « تءمل » بفتحها . والواقع أن الكلمة لا وجود لها بهذه الصفحة لا فى أولها ولا فى آخرها ولا فى صلبها ولا فى حاشيتها . كذلك وقع اختلاف فى البيت الذى ورد فى المقدمة وكان موضوع كلتنا . فقد روى فى المقدمة « وأنعم » ثم روى فى قصيدته ص ٢٥٤ فى آخر أسطرها « ونعم » . ونحن نترك تتبع الغلطات لمن أخذوا على أنفسهم محاسبة دار الكتب على أغلاطها الكثيرة فيما تخرجه للناس من مطبوعات راجين أن يكون لها شأن آخر فى عهد العالم الهمام حضرة صاحب الغزة أسعد بك برادة مءيرها الجديد



٣٣

مراجعات في الآداب والفنون

قرأت في عدد من أعداد البلاغ القريبة إعلاناً لكتاب بالعنوان السابق وحين علمت أنه للأستاذ عباس العقاد هرولت إلى شرائه لأنني واثق أن أجده فيه تلك البحوث الطريفة والآراء الناضجة وأثر الفكر الطليق الذي نجده في كل ما يخطه قلم الأستاذ

صاحب الكتاب صديقي وقد نلتقي في اليوم غير مرة، فلم أتلکاً في شراء الكتاب حتى يهديه إليّ لأنني أعُدُّ الهدية المشكورة منه أنه لم يبخل على القراء بهذه الأفكار التي يقول عنها بحق إنها بناته وبنوه، فيكفينا منه أنه جلا لنا هذه العرائس وزين لنا حياتنا الأدبية بهؤلاء البنين لقد أتى الأستاذ بتمهيد علل فيه تسمية كتابه (مراجعات) فشرح لنا بفلسفته الواضحة أنه لم ينقل هذه الآراء من كتاب ولا قلدها فيها باحثاً من السابقين وإنما هي خواطر لمعت في ذهنه فما زال يُذَكِّرها بالمناقشة ومراجعة الفكر حتى صارت كواكب ثابتة الضوء ظاهرة البهاء . يقول الأستاذ في مقدمة كتابه (فليس يسرني أن تُنمى إلى أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء إذا كانت غريبة غني بعيدة النسب من نفسي) . ثم خشي أن يمدّه الناس معجباً بنفسه تيأهاً بآثاره . أما أنا فأرى

أز التيه والإعجاب هما منتهى التواضع ممن يعد مخترعا لكل فكرة ذكرها
أو رأى أدلى به . فليبالغ المخترعون في الإعجاب بأعمالهم وليكثروا من التجنى
والدلال علينا ولنهنا نحن بما ظفرنا من لذة وراحة في الاستمتاع بآثارهم .
وإذا كنا لانعدم الزهو وتصعير الخد من « مصنقى » كتب المختارات فلنقبل
شاكرين كل ما يكون من جسارة العقول أصحاب الفكر الحر الذى يتجلى
فى كل سطر من كتابتهم .

إن عنوان الكتاب ليدللك على موضوعه فهو يحوى ألوانا شتى من
الأدب الواسع الأطراف ، فمن خيال فى جمال الزهرة ، إلى تفسير لمعنى الجمال
إلى دراسة طريفة لمثل بشار ، وابن الرومى ، إلى نعى لفقيد الألحان والأغاني
السيد درويش نعيما يذكى القلوب أسى ، ويبكى العيون دما ، ويدل على الوفاء
والتماهى فى عرفان الجميل ، إلى غير ذلك من كل ما نعهده جميعا فى الأستاذ
العقاد من طرافة فى كل ما يجرى به قلمه .

المؤلف شاعر وناثر ، وكتابه هذا من آثاره المنشورة . ولكنك لاتستطيع
أن تمنع الشاعر أن يكون شاعرا فى كل ما يقول . أليس من الخيال السابح
فى علياء الشاعرية قوله فى وصف الزهرة (وأول ما تدل عليه الزهرة النضارة
ثم الالهفة التى ترافق فى ذهن ذكرى زوالها السريع فسكانما هى بشكلها
المنضير الرقيق رمز إلى فرصة العيش التى تنادى الناس باغتنامها وتذكرهم
بسرعة فراقها) . وقوله فى وصف صحراء (المأظه) الموحشة على حدود
مصر الجديدة العامرة (تبدو للوهم كأنها الوحش المكبوح أحرق به نطاق

الأسر من كل صوب أو كأنها صحراء يتيّنة صناعية أعدها الناس حول ديارهم
لا يحاش أنفسهم من فرط الأنس بالعمار)

إذا كان الأستاذ العقاد في غنى عن هذا القول فإنّ القراء لاشك
منتفعون بكتاب يقدم لهم تقديمًا صادقًا بريئًا . وكنا قد وقفنا أنفسنا على
خدمة الأدب — إن قبلها منا — لبهرجة ^(١) باطلة ، والإشادة بفاضله



(١) البهرجة التزييف أى اظهار بطلان الشيء

٣٤

دار الكتب الملكية

كنت أختلف إلى دار الكتب وأنا طالب منذ ست عشرة سنة . ثم أنا اليوم أدخلها في الضرورة القصوى والحاجة الحافزة . فهل غيرت الستة عشر عاماً من أحوال دار الكتب ؟ لا . بل إن كل ما حدث من التغيير والتبديل والإحداث والتجديد ، بعد طول النقد وكثرة الملاحظة ينحصر في مواعيد الفتح والإغلاق وأيام الراحة والعطلة فبعد أن كانت على مثال دواوين الحكومة تفتح في الصباح وتغلق في الظهيرة وتعطل يوم الجمعة صارت تستمر إلى الليل وتعطل يوم الاثنين . كذلك مما تراد من التجديد فيها تلك الحكم التي علقت على حيطانها إلى جانب (ممنوع البصق) من مثل قولهم (الوقت من ذهب) و (حديث اثنين يؤذى ثالثاً) و (إذا قلت لصاحبك اسكت فقد نعت) و (رأس الحكمة مخافة الله) و (نزع الفيش » من مواضعه متلف له وموجب للتخليط فيه)

هذا كل ما حدث من التغيير واهتدت إليه آراء المصلحين من التنسيق والإبداع . اللهم إلا ما كان من أمر مكتبة التاميز فإننا لم نرها بعد . فأما وسائل الترغيب في المطالعة من الإسعاف بالطلبة وتيسير البحث عن الكتاب المطلوب ، فتلك مُعضلة بقيت حيث هي من حين كانت الدار .

الفهارس وهى أولى الأشياء بالعناية فى دور الكتب تراها فى مدخل حجرة المطالعة الكبرى فى مكان مظلم يعوق ضعيف البصر عن متابعة البحث لولا بعض من النور الصناعى هناك . ثم هى فى أدراج ضيقة متلاصقة لا يتيسر مع تلاصقها أن يبحث اثنان فى درجين متجاورين . ولذلك ترى الباحثين يتعاقبون على الفهارس وقد يطول من أحدهم الانتظار على غير جدوى لأن سابقه ضال لا يجد له هادياً . . . فهلا راعت إدارة الدار هذا الزحام الشديد على الفهارس ففرقت بينها ثم جعلت منها أمثلة متعددة حتى لا يحتاج باحث إلى انتظار غيره . ولقد تحسن الإدارة لو علقت على الحائط فى حذاء كل فهرس رُقعة كتبت فيها بخط كبير نوع هذا الفهرس

وإن الأمر الذى كنت أشكوه قديماً وجدت اليوم كثيرين لا يزالون يشكونه من أمر هذه الدار ، وذلك هو الغموض فى كثير من شؤونها والعقبات الجمة فى سبيلها ، فى أول عهدى بها كثيراً ما كنت أقصدها وأعود من غير أن أوفق إلى كتاب أستعيده حتى درست أحوالها وكشفت غوامضها وذاعت لى أسرارها . وقد ذكرنى بذلك أنى كنت منذ أيام ألوم صاحباً لى لتركه تمضية بمض فراغه فيها فقال لى إن دخولها علم يحتاج إلى دراسة لم أوفق إليها بعد . فذكرتنى هذه الكلمة بما قام فى سبيلى من عقبات تغلبت عليها قديماً بقوة الشغف الذى كنت أطلب به العلم وأستلذ به كل ما أعانى فى سبيله

فلم لا تخطط الإدارة اللثام عن تلك الطلاس حتى لا يبحجم المحبون للعلم عن دخولها بدعوى وعمورة سبيلها ؟ هل يصعب عليها أن تختار موظفاً

واسع الصدر ، باش البقاء ، نشيط الحركة ، مبعجلاً لأهل العلم ، يكون بجانب الفهارس يستهدى برأيه كل باحث . . .

كذلك ألاحظ أن عيباً في دار الكتب لم يحاول أحد ممن تعاقبوا عليها أن يتلافاه بالإصلاح . وهو هؤلاء السعاة الذين يحضرون الكتب للقراء . فهم « رعاك الله » يجمعون إلى سوء الأدب ومظهر البؤس ورزوح الكاهل بأعباء الحياة ، استئقالا للعمل ، وكراهة للحركة ، وعمشاً وصمماً ، وهرماً وسقماً . فإذا أتاك أحدهم بكتاب أحدث جلبته بجذائه الثقيل ، واهتدائه إلى مكانك بألف دليل . ووصل إليك وهو يلهث تعباً ، ويتراعى لغباً . ثم رماك بالكتاب ، يصحبه السباب . فإذا وجدته فرائجياً ومرادك عربى ، أو إنجليزياً وطلبك فرنسى . أهلك على المراقب ، ثم ولى وهو هارب . وفى ذلك يضع يومك فتخرج ولم تكشف غمرك ، أو تصحح غلطتك أو تتلاف جهلتك

يا عجبا ! يكون عمال الترام حملة شهادات وشباناً أصحاء وتجد منهم الشركة حاجتها مع مشقة عملها وكثرة مخاطرهما وتحرم دار للعلم أو للحكومة أو عمل شريف كهذا من مثل هؤلاء . والحكومة — والحمد لله — لا تضنُّ على ساعاتها وخدمتها بما يرضى حملة الشهادات فينا . فكيف لا تفكر إدارة هذه الدار أن تستبدل هؤلاء الوكلة العجزة القعدة شباناً متعلمين ، أيقاظاً فيما يكلفون ، خفافاً فيما يؤدّون ، لم تحنِ ظهورهم الأيام ، ولم تقطّب جباههم الآلام والأسقام